دراسات قرآنية

التفسير العلمي للقرآن.. بين مؤيديه وناقديه

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر جاء المد الاستعماري ليحتل أغلب أقطار العالم الإسلامي،ولقد جاء مع الاستعمار تقنياته العلمية وابحاثه ومكتشفاته في مجالات عدة ولقد كان الانجاز العلمي للحضارة الأوروبية موضع اعجاب جميع رجال الدين في العالم الاسلامي، ولأن الحضارة الاوروبية استطاعت -قبل ان تحقق هذا التقدم العلمي -ان تواجه سيطرة رجال الكنيسة على اوجه الحياة في اوروبا، ومن هنا حاول رجال الدين المسلمين ان يدلوا بآرائهم حول هذا الوافد الجديد، ولقد انقسم رجال الدين وعلمائه في عالمنا الاسلامي الى اتجاهين في موقفهم من التقدم العلمي المذهل في أوروبا، فالاتجاه الأول يؤيد التقدم العلمي، بل انه يحاول ان يقدم تفسيراً علمياً للقرآن الكريم، مثل تفسير الجواهر لطنطاوي جوهري، محاولة الكشف عن الاعجاز العلمي للقرآن الكريم كما هو الحال عند المدرسة الهندية على يد أحمد خان ووحيد الدين خان، وكذلك كانت محاولة السوري سعيد حوّى في كتابه «الله».

بقلم: أحمد محمد سالم

ولكن على الرغم من اتجاه التأييد للتفسير العلمي للقرآن، الا ان هناك تياراً آخر يرفض هذا الاتجاه، وينتقد محاولات التفسير العلمي للقرآن، ويرون انه يكفي في كتاب الله انه يدعو الى ضرورة التعلم والتفكر في الكون وفي مخلوقاته، ولايجب ان نتكلف في الربط بين الاكتشافات العلمية من ناحية وآيات القرآن من ناحية اخرى لأن العلم متغير والقرآن ثابت فهل يعني تغير العلم تغير القرآن وفي هذا الاتجاه نجد شخصيات بارزة تشمل العديد من علماء الاسلام امثال العقاد، وأمين الخولي، وسيد قطب، محمد قطب، وبنت الشاطيء الخ ومن هنا يمكن ان نعرض لكل اتجاه ومبرراته في التأييد او الرفض لهذا التفسير.

الاتجاة المؤيد للتفسير العلمي للقرآن:

من الواضح ان هذا الاتجاه يرى ان القرآن هو السبب الحقيقي وراء الحضارة الاسلامية الماضية ،وانه يشتمل على كل العلوم والمعارف الانسانية. ويرى الدكتور احمد صبحي ان هذا التيار ظهر لاسباب عدة فيقول: «ان هناك اسباباً دعت الى ظهور الاتجاه العلمي لتفسير القرآن، اذ خشي اصحاب هذا الاتجاه ان يتشكك المسلمون في دينهم، وان يظنوا ان العلم الحديث قد خلف الاديان، والكتب المنزلة وراءه ظهريا وان يصيب الاسلام ما أصاب المسيحية منذ عصر النهضة الاوروبي حين اتهم الدين بأنه اساطير»(١).

ولقد كانت مدرسة الاصلاح الديني في الهند تؤيد هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم وذلك لأن الهند كانت من اوائل الدول المستعمرة التي اطلعت على التقدم العلمي الاوروبي فقد ذهب احمد خان الى انه «لم تعد البلاغة لغة عصر العلم حتى نقصر الاعجاز القرآني على الاعجاز اللغوي -كما فعل الأقدمون - وانما الاعجاز حقا في عصرنا في التطابق بين القرآن والعلم»(٢).

ومن الممكن ان نقدم الكثير من نماذج التفسير العلمي لبعض آيات القرآن الكريم، حيث ذهب وحيد الدين خان في بعض كتاباته الى ربط الاكتشافات العلمية بالآيات القرآنية فيقول في تفسير (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً)الفرقان/٥٣.

(مرج البحرين. يلتقيان. بينهما برزخ لايبغيان)الرحمن١٩-٢٠ .

ان الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات المعروفة عند الانسان منذ أقدم العصور وهي انه اذا ماالتقى نهران في ممر مائي فماء احدهما لايذوب في ماء الآخر، ويبدو ان خيطاً فاصلا. يميز احدهما عن الآخر، ان هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الانسان القديم .. ولكن لم نكشف قانونها الا منذ بضع عشرات السنين فقد اكدت المشاهدات والتجارب ان هناك قانوناً ضابطاً للاشياء السائلة يسمى قانون «المط السطحي» وهو يفصل بين السائلين لأن تجاذب الجزئيات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله، ولقد أفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن (بينهما برزخ لايبغيان).

ويفسر وحيد الدين خان الآية الآتية (الله الذي رفع السموات والارض بغير عمد ترونها)الرعد/٢.

فهذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فقد كان يشاهد عالماً كبيراً قائما في الفضاء مكوناً من الشمس والقمر والنجوم، ولكنه لم ير لها أي ساريات او اعمدة، والرجل الجديد- في عصر العلم- يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهدته التي تثبت ان هناك عمداً غير مرئية، تتمثل في قانون الجاذبية، وهي التي تساند كل هذه الأجرام في البقاء في أمكنتها المحددة.

ومن خلال علم الفلك نجد ان وحيد الدين خان، يرى ان القرآن الكريم طرح فكرة معينة ومحدودة حول بداية الكون المادي، ونهايته، وكانت هذه الفكرة غير معروفة قبل قرن من الزمان، وجاء العلم ليشهد على ماجاء في القرآن الكريم، يعبر عن بداية الكون على النحو التالي:(أولم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما) الانبياء/٣٠.

اما عن نهاية الكون فيقول(يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب) الانبياء /١٠٤.

فالكون بناء على تفسير هذه الآيات كان منضماً ومتماسكاً ثم بدأ يتحدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا التحدد تجميعه مرة اخرى في حيز صغير.

وكذلك يرى وحيد الدين خان ان العلم الحديث كشف عن وجه الإعجاز في تحريم القرآن للحم الخنزير، فيقول: إن الانسان في الماضي لم يعرف شيئا عن اسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم ان لحم الخنزير يسبب امراضاً كثيرة لأن هذا الحيوان يحتوي على اكبر كمية من «حمض البوليك» من بين سائر الحيوانات، فالخنزير لايتمكن من اخراج حمض البوليك الا بنسبة اثنين في المئة ولكن الكمية الباقية تصبح جزءا من لحمه، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل والذين يأكلون لحمه هم الآخرون يشكون من آلام المفاصل، والروماتيزم(٣) تلك هي محاولات للتفسير العلمي لبعض الآيات القرآنية، والتي تساهم بالفعل في تعميق ايمان العوام بالله وبالقرآن، بل تعميق ايمان رجال العلم ايضا، بمدى مايحمله القرآن من مضامين ربانية وإلهية، يحاول العلم الحديث ان يكشف عن بعضها في تعامله مع الكون والطبيعة.

ولكن على الرغم من ايجابيات التفسير العلمي للقرآن، إلا ان هذا التفسير يحمل التكلف احياناً اخرى، بل الخروج على المألوف، فنجد الإمام محمد عبده في تفسيره لجزء «عم» يفسر الآيات التالية من سورة الفيل (وأرسل عليهم طيراً أبابيل . ترميهم بحجارة من سجيل.فجعلهم كعصف مأكول)الفيل/٣-٥.

فيقول: ان هذه الآيات تدل على ان الذي حدث في جيش أبرهة هو انتشار داء الجدري والحصبة.. وقد فعل ذلك الوباء بأجسامهم

ماينذر وقوع مثله. فكان لحمهم يتناثر ويتساقط، فذعر الجيش وولوا هاربين، واصيب الحبشي- أبرهة - ومات في صنعاء.. ويقول: محمد عبده في موضوع آخر «يصح ان نعتقد ان هذا الطير من جنس البعوض او الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه، فأثار فيه تلك القروح التي لاتنتهي إلابإفساد الجسم وتساقط لحمه»(٤) ولاشك ان تأويل الشيخ محمد عبده لهذه

القرآن الكريم طرح فكرة محدودة حول بداية الكون المادي وجاء العلم ليشهد على صحتها

الآيات، وتقديم نوع من التفسير العلمي انما يحمل في داخله خروجاً على نص القرآن الصريح، وفيه كثير من التكلف والشطط.. وهذا التكلف في التفسير العلمي هو مادعا بعض رجال الدين إلى نقد هذا التفسير.

الاتجاه الناقد للتفسير العلمي للقرآن.

ان عباس محمود العقاد واحد من اقطاب الاتجاه الرافض للتفسير العلمي للقرآن، فيرى العقاد انه ينبغي ان نفيد من النظريات العلمية دون ان نقحمها على القرآن الكريم، ونعتبر القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن الى زمن، ومن تفكير الى تفكير، ولهذا من الخطأ ان نقرر ان القرآن يؤيد النظرية السديمية في نشأة المنظومة الشمسية او نشأة الكواكب عموماً من دخان المجرة المشهورة او دخان المجرات الاخرى التي لاترى بالعين ولا بالمناظير، فقد تعاقبت النظريات منذ ايام العالم الطبيعي «بوفون» الى اليوم عن نشأة المنظومة الشمسية ولم تزل تنقض بعضها بعضا حتى الساعة (٥).

ومن هنا يؤكد العقاد على انه «من الخطأ ان نتلقي كل نظرية علمية كأنها حقيقة دائمة نحملها على معاني القرآن، لأن النظريات العلمية لاتثبت على قرار بين جيل وجيل.. ومن هنا لايطلب من كتب العقيدة ان تطابق مسائل العلم، كلما ظهرت مسألة فيها لجيل من اجيال البشر، ويطلب من معتقديها ان يستخرجوا من كتبهم تفصيلات تلك العلوم، كما تعرض عليهم في معامل التجربة والدراسات، لأن هذه التفصيلات تتوقف على محاولات الانسان وجهوده، كما تتوقف على حاجاته وأحوال زمانه» (٦).

واذا كان العقاد يرفض وينتقد التفسير العلمي وذلك لتغير العلم وثبات القرآن، فانه يرى: «ان فضيلة الاسلام الكبرى انه يفتح للمسلمين ابواب المعرفة، ويحثهم على ولوجها والتقدم فيها، وقبول كل مستحدثات من العلوم على تقدم الزمان، وتجدد ادوات الكشف ووسائل التعليم وليس فضيلته الكبرى ان يقعدهم عن الطلب وينهاهم عن التوسع في البحث والنظر، لانهم يعتقدون انهم حاصلون على جميع العلوم.. ومن هنا نرى انه لم يشأ ان نستدل على قداسة القرآن بما ظهر من نظريات العلم الحديث، اذ القرآن كما أسلفنا لاحاجة به إلى مثل هذا الادعاء، لانه كتاب عقيدة يخاطب الضمير، وخير مطلب من كتاب العقيدة في مجال العلم ان يحث على التفكير ولايتضمن من الاحكام مايشل حركة العقل في تفكيره، او يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم حيث استطاع» (٧).

ومن جانب آخر يقدم أمين الخولي رؤية نقدية للتفسير العلمي للقرآن الكريم، فهو يرجع هذا النوع من التفسير الى القدماء من علماء الدين، فيقول: «ان الغزالي هو أول من قال بهذا التفسير فهو في الإحياء يعرض ويقرر ان كل ما اشكل فهمه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن اليه رموز ودلالات عليه وان القرآن يشير الى مجامع العلوم كلها»(٨).

ومن ناحية اخرى يرى امين الخولي ان اتجاه الرفض لهذا التفسير كان موجوداً ايضا عند القدماء فقد رفض الشاطبي في «الموافقات» هذا التفسير فقد رأى «ان كثيراً من الناس تجاوزوا الحد في الدعوى على القرآن فاضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم وهذا اذا ماعرضناه على ماتقدم لم يصح المرجع نفسه» (٩) وعلى نفس اتجاه الشاطبي سار امين الخولي مبرراً نقده للتفسير العلمي بأن العلم في تقدم سريع ولايمكن ضبطه فكيف نربط الاكتشافات العلمية بالقرآن الثابت فيقول: «كيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة من القرآن على نحو ماسمعنا آنفاً، وهي جوامع لايضبطها اليوم احد، ألا يتغير ضبطه بعد يسير من الزمن او كثير، وماضبطه القدماء منها قد تغير عليهم فيما مضى، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما مضى» !!!(١٠).

ويؤكد أمين الخولي انه يكفي اصحاب النوايا الطيبة هؤلاء ان يؤكدوا ان الإسلام لايعارض العلم في شيء، وهذا خير وأنفع فيقول: «ان ماتجهت اليه النوايا الطيبة من جعل الارتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحي بيان صدقه او اعجازه او صلاحيته للبقاء.. الخ فربما كان خيره اكثر من نفعه، على انه ان كان لابد لاصحاب هذه النوايا، ومن لف لفهم من ان يتجهوا اليه ليدفعوا مناقضة الدين للعلم، فلعله يكفي في هذا ويفي الا يكون في كتاب الدين نص صريح يعارض حقيقة علمية تشكف البحث انها من نواميس الكون ونظم وجوده، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة، ومسايرة للعلم، وخلاصُه من النقد» (١١) ومن هنا يرفض أمين الخولي التفسير العلمي لانه تكلف زائد، والقرآن غني عن ان يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك ان يخرج به عن هدفه الانساني.

ومن الواضح ان اتجاه نقد التفسير العلمي للقرآن يستند إلى ان العلم متغير بصورة مذهلة ونصوص القرآن ثابته تتجاوز حدود الزمان والمكان، فربط التفسير العلمي بالآيات القرآنية، قد يضر بالقرآن، هذا بالاضافة الى التكلف الواضح في التفسير العلمي للقرآن كما بدا واضحا عند محمد عبده، هذا بالاضافة إلى ان هذا التفسير يشغل القارىء عن المقاصد العالية والهداية السامية للقرآن.

ولكن على الرغم من حدة آراء الاتجاه الرافض للتفسير العلمي للقرآن الا أننا نقول ان الدعوة الاسلامية في حاجة الى تعدد المداخل والاتجاهات والطرق التي تدعو الى الاسلام، ولعل التفسير العلمي يصلح لبعض الناس كما أن هذا التفسير ليس كله خطأ ،ذلك لان القرآن حدثنا عن نواميس كونية ثابتة لايمكن ان تتغير ، وكشف العلم الحديث عن هذه النواميس، وهذه الآيات تسمى بالآيات الكونية في القرآن، وحين يلعب الانسان في هذه النواميس يضر بنفسه وبالبيئة، والكشف عن علمية هذه الآيات مدعاة لتعميق الايمان... الا انه لايجب الشطط والتكلف في تفسير الآيات لأن هذا قد يضر بالهدف الذي قام من اجله التفسير العلمي، ويجعل منه اداة سلبية للدعوة، وليس العكس. وبهذا يتضح ان اتجاه التأييد للتفسير العلمي يهدف الى خدمة القرآن، وكذلك فإن اتجاه النقد يرى ان هذا لصالح القرآن، حتى نستطيع ان نقف على الاهداف السامية للقرآن، وبهذا يمكن القول إن هناك تعددا في الآراء تجاه التفسير العلمي، وهذا هو طابع الاسلام وحضارته التي تعددت فيه المذاهب الفقهية حتى تحدث الكثير من المرونة في الحياة الاجتماعية، فكل الآراء في النهاية سواء المؤيد للتفسير العلمي او الناقد له يسعى لخدمة الاسلام.

الهوامش:

١-د. احمد صبحي (هاؤم اقرءوا كتابية).. محاولة لتجديد الفكر الاسلامي دار النهضة العربية- بيروت١٩٩٦ص٣٣.

٢-المرجع نفسه ٣٢.

٣-وحيد الدين خان: الاسلام يتحدى دار المختار الاسلامي- القاهرة ط٤ ١٩٧٦ ص١٢٧-١٣١

٤-الشيخ محمد عبده: تفسير جزء عم دار الشعب القاهرة ص١٢٠

٥-عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية دار الهلال- القاهرة ص١٨١

٦-المرجع نفسه ص١١

٧-المرجع نفسه ص١٨٨

٨-أمين الخولي: دراسات اسلامية مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة ١٩٩٥ ص٢٨

٩-المرجع نفسه ص٣١

١٠- أمين الخولي: مناهج تجديد - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة ص٢٢٢

١١-المرجع نفسه ص٢٢٢